البناءُ الدلالِي في روايةِ جسدُ الحرائقِ لواسيني الأعرج
-قراءة سيميائية سردية-

Semantic construction in the novel "Jassado El-Haraiq" of Wassini El Aaradj-Semiotic and Narrative Reading-

تاريخ الاستلام : 2019/07/27؛ تاريخ القبول : 2019/12/19

* د.سامي الوافي

أستاذ محاضر- أ –
قسم الأدب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة العربي بن مهيدي
أم البواقي- الجزائر-

ملخص

ركّزنَا في مقالِنا هذا على البناءِ الدلالِي في روايةِ "جسدُ الحرائقِ" للروائي واسيني الأعرج، وفْقَ آلياتِ مدرسة باريس السيميائية، مُحاولينَ معَها الأخذَ بعينِ الاعتبارِ جملةَ ملفوظِ الحالةِ والتحولِ التي ميَّزتْ شخصياتَها، مِنْ خِلالِ ربطِ الأدْوارِ الغرضيةِ التِي أدَّتْها أثناءَ إجراءِ عمليةِ التحويلِ بالبرامجِ السرديةِ فِيهَا، لِمَا أظْهرتْهُ لنَا منذُ البدايةِ مِنْ انقسامٍ في المواقفِ بينَ رؤيتينِ لنوعينِ من العلاقاتِ، نَشأتْ بينَ طرفينِ متضادينِ هُنَا، هُما: السُّلطةُ والمُجتمعُ والمُثقفُ، منْ أجلِ تحقيقِ موضوعِ القيمةِ.

الكلمات المفتاحية: البناءُ، الدلالةُ، الذاتُ، الموضوعُ، البرنامجُ السردِي.

Abstract

In this article, we focused on the semantic construction in the novel "Jassado El-Haraiq" of the Algerian novelist "Wassini El Aaradj" according to the mechanisms approved by Grimas ; trying to take into account the state utterences as well as the doing utterences which characterized its characters by connecting the roles which they have performed during the conversion processes with the narrative programs within it ; through what it Shows us from the beginning about the split of its characters between two visions to two types of relation between them , and that will be established between two opposite parties: The authority/ the society = the intellectual, for the Subject value.

Keywords: , Significance, The ego, Subject, The Narrative Program.

Résumé

Dans cet article, nous sommes concentrés sur la construction sémantique du roman "Jassado El – Haraiq" de romancier algérien "Wassini El Aaradj" selon les mécanismes approuvés par Grimas; en essayant de prendre en compte les énoncés de l'Etat ainsi que les énoncés de comportement qui caractérisaient ses caractères en reliant les rôles qu'ils ont assumés au cours des processus de conversion avec les programmes narratifs qu'il contient; à travers ce qu'il nous montre depuis le début sur la scission de ses caractères entre deux visions en deux types de relations entre eux, et qui seront établis entre deux parties opposées: L'autorité / la société = l'intellectuel, pour la valeur Sujet.

Mots clés: construction, signification, le moi, sujet, programme narratif.

* Corresponding author, e-mail: louafi_2010@yahoo.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2019.

تمهيد:

قد تكونُ روايةُ "جسَدُ الحرائقِ (نُثارُ الأجسادِ المحروقةِ)" للروائِي واسِيني الأعْرج، من بينِ الرواياتِ الجزائريةِ العديدةِ التي احتلَّ موضوعُ الصراعِ بينَ المجتمعِ والمثقفِ والسلطةِ موقِعًا أثيرًا في عالمِها التَّخييلي، ما جعلَها تُبنى بطريقةٍ هدَفتْ إلى إثارةِ الالتباسِ لدَى القارئ، بتأجيجِ نارِ الصراعِ بداخلِهِ، لدرجةٍ انتَقلتْ فيها عدوى القَلقِ وافتقادِ الأجوبةِ مِنْ الخارجِ إلى الداخلِ، مُشتملةً عددًا من شخصياتِها المركزية، ليأخُذَنا تنَاول البناءِ الدلالِي فيها بالتحليلِ إلى عمليةِ تشريحٍ للبنياتِ العامليةِ، آخذينَ بعينِ الاعتبارِ جملةً من الحالاتِ والتحويلاتِ التي ميَّزَتْ شخصِياتها، مِنْ خلالِ الأدوارِ التي تؤديها أثناء إجراءِ عمليةِ التحويلِ، وذلكَ لقيامِ "السرديةِ على مجموعةٍ من الملفوظاتِ المتتابعةِ، والموظّفة المسنداتِ فيها، لتُشاكِلَ -ألسُنيًا- جملةً من التصرفاتِ الهادفةِ إلى تحقيق مشروعٍ"[1]، مُتبنّى من قبلِ شخصياتِها المركزية، والحديثُ عن تجلياتِ البنى العامليةِ هُنا سيكونُ مقتصرا على البنى الشاملةِ في المُكونِ السردي، لذا سنختارُ الذواتَ الكُبرى والمُهيمنة في النصّ الروائِي، ومِنْ ثمّ ربطِها بالبرامجِ السرديةِ لتعدُّدِ وتنوّعِ رغباتِها؛ لأنَّ كُلَّ حكايةٍ تحملُ بين طيّاتِها حُبكةً تُشكِّلُ ذروةَ الصراعِ في علاقاتِ الشخصياتِ بعضِها ببعضٍ.

وضبطُ علاقةِ الأحداثِ بالشخصياتِ في الروايةِ سيساعدُنا كثيرًا في تحديدِ أطرافِ الصراعِ، فـ"الكشفُ عن المنطقِ العامِلي يستدعي دراسةَ العلاقاتِ التي تنتظمُ وفقَ إستراتيجيةٍ سرديةٍ محدّدةٍ، ووفقَ نظامٍ يستدعي التحكُّمَ فيه بدقةٍ"[2]، لكي نستطيعَ ضبطَ المكونِ السردي فيها.

الناظرُ لمتنِ الروايةِ يجدُها موزّعةً على اِثني عشرة وقفة، معنونة كالآتي: **1- وطنٌ آخرٌ 2- حُزنُ مريمَ 3- سرابُ المدينةِ 4- أراضِي الخيبةِ 5- أناشيدُ الميناءِ 6- لا يشبهونَ الآخرينَ 7- صوتُ الموتِ 8- الجدارُ العالِي 9- نُثارُ الأحلامِ 10- الكابوسُ الأخير 11- الطّعمُ المُرُّ 12- ظِلالُ المرايَا.**

هذه العناوينُ تصبُّ أحداثُها في مصبٍّ واحدٍ، هو **الصراع** بين: **المجتمع / السلطة / المثقف**، فهي تُوحي بأحداثِ الروايةِ، وكأنَّها مسرحيةٌ يقومُ الخطابُ بعرضِها، ورغمَ هذا التقسيمِ نجدُ أجزاءَها متلاحمةً بطريقةٍ جعلتْ منها مَقطعًا واحدًا، "كُلُّ مقطعٍ سردي [فيها] قادرٌ على أنْ يكونَ بمفردهِ حكايةً مستقلةً، وأنْ تكونَ لهُ غايتهُ الخاصةُ بهِ، [كمَا] يمكنُ أن يُدرجَ ضمنَ حكايةٍ أعْم، وأن يؤدِي وظيفةً خاصةً"[3]، وهذا يُعطِي المجالَ أكثرَ لانفتاحِ الأحداثِ، بتركِ الفرصةِ لكاملِ شخصياتِ الروايةِ في الظهورِ وأخذِ نصيبها من المشاركةِ، لتتداخلَ الشخصياتُ هُنا مُشكّلةً -بالإضافةِ لمناجاتِها- حواريةً، كونَ "التعارضَ القائمَ بين الحواري والمونُولوجي يتراجعُ مُفسِحًا المكانَ لانشقاقٍ داخِلي، يصيبُ الحِواري الذي يتخذُ هيئاتٍ مختلفةٍ"[4]، بينَ صديقٍ وعدوٍ، وبينَ اتصالٍ وانفصالٍ.

من خلالِ تحليلِ البُنى السردية في الروايةِ يظهرُ لنَا، ومنذُ البدايةِ انقسامَ شخصياتِها بينَ رؤيتينِ لنوعينِ منَ العلاقاتِ بينهما، الخاضعة لـ"لعملياتِ التحويلية المؤدية إلى تمليكِ العاملِ الذاتِ موضوعًا، أو حرمانَه منهُ، وهذا التمليكُ أو الحرمانُ يُؤدي إلى

بنيةٍ للصراعِ"[5]، التي ستنشَأ بين طرفينِ متضادينِ هُنا، هُما: **السلطةُ / المجتمعُ = المثقفُ**، من أجلِ موضوعِ القيمةِ (توفيرُ حياةٍ كريمةٍ في بيئةٍ عادلةٍ).

فالحكاية في مجملها تتمحور حول مغامرة بدأت بطموح شباب مثقف وانتهت بمأساة، تحولت معها الذات المركزية **(كريم)** من فاعل حالم وطموح يحلم بمستقبل مُثمر ووطن عادل، إلى ذات منكسرة مهزومة لم تحقّق ما سعت إليه.

1- المنطقُ العاملي وإستراتيجيةُ العلاقاتِ في روايةِ جسدُ الحرائِقِ:

دراستنا هنا ستُعنَى أساسًا باستنباط القواعد الداخلية للملفوظات **(الحالة / التحول)**، من أجل استخراج **النظُم** التي تحكمها وتوجّهُ شخصياتها؛ إذ منذ البداية تبدو علاقة **(رشيد / كريم / مريم)** كـ**فواعل رئيسية** و**ذوات مُهيمِنة**، بالنّظام الحاكم **(السلطة) فصليةً**، لاعتبارات مُسبقة هدفت إلى إحداث التغيير، خاصة بعد أخذ قرارِ الهجرة نحو فرنسا كحلٍّ بديل، هروبا من الجزائر وظروفها المزرية، ولتحقيق هذه **الرغبة** يجب عليهم خلق **علاقة وصلية** بين **ذات الرغبة** (رشيد / كريم) و**الموضوع المركزي** (قرار الهجرة)، وذلك بتوفير **أهلية مزدوجة** تتطلّبُ **فعلا إقناعيا**، هدفها **تحقيق رغبتين** متقابلتين هما أولاً: **الانفصال** عن الوطن الجزائر (المسلوب من قبل ورثة الثورة)، الذي يحتلُّ مكانة كبيرة في قلب كريم، كقوله: «**منذ أن أصبحت أذهب عند رشيد، لم تسألن مريم عما كنت أفعله، كانت تعرف جيدا أنّ البطالة كانت تأكلنا، وأنّ علينا أن نجد عملا يستر خوفنا من هذه الدنيا ... سنبحث عن مخرج، وسنجده ليفرحوا بهذه الأرض التي يؤكدون لنا كلّ صباح أنها ليست لنا ...**»[6]، لتُجيبَه مريم بكل وعي: «**أوتظنُّ أنني لا أعرف صعوبة ما أنت فيه؟ أُدرك جيدا يا كيمو حبيبي أنّ دنيانا سرقها منا ورثة الثورة المقدّسة الذين استولوا على كلّ شيء، لهم ولأولادهم، وطلبوا منا أن نصفّق لخطاباتهم الجوفاء ...**»[7]، وثانيا: خلقُ **علاقة اتصال** مع المهجر (باريس الحُلم والطموح)، قصد الظفر بفرصة حياة أفضل في قوله: «**أنا ورشيد كُنّا على شفا حفرة من اليأس، كان مجنونا بهوس كان وحده يعرف سرّه، حبّبني في باريس كمن يحببني في امرأة، كنت في الحقيقة منكسرا بعمل لم يكن يثيرُ فيّ أيّة شهية، كم من مرّة شجّعني على غزو باريس، حاول حتى الموت إقناعي بجمالها وحبّها للغرباء ... ولأنهم غلقوا الأبواب وراءهم ورموا المفاتيح في سابع بحر، لم يبق شيء آخر غير أن نهاجر، صحيح باريس ليست لنا، ولكننا سنعرف كيف نمارس معها غوايتنا، أنت تعرف أنها مدينة الغرباء ...**»[8]؛ إذ نُلاحظُ في هذا **الملفوظ** تحوُّلُ **كريم** بالنسبة لصديقه **رشيد** إلى **ذات قيمة**، بعد سعيهِ الحثيث لتحقيق موضوعهما المُشتركِ (الظفرُ بفرصة حياة أفضل في باريس)، ليكون **الوضع البدئي** كالآتي:

- كريم ٧ الجزائر ٨ باريس.

فالجزائر الوطن (وهران الذاكرة والحلُم والطموح) يتعدى بالنسبة لـ**كريم** مجرّد مكان، لما يُمثّلهُ من قيم أرسى حياته كلها لتحقيقها، كما في قوله: «**كلُّ شيء يبتعدُ الآن، كنت أحلُم أن أحكي لأولادي سير أجدادهم الذين احترقوا من أجل هذه الأرض، أن أعطيهم كلَّ حبي وأعلّمهم كيف يقفون كلَّ صباح وينشدون النشيد الوطني، أحفظهم كلّ الأناشيد الوطنية التي علّمها لي والدي ... وأرافقهم صباح كل يوم سبت إلى حديقة الألعاب في أجمل مدينة نبنيها كما اشتهيناها واشتهاها الأولون، عليّ الآن أن أقبل بكل هذه الخسارات**»[9]، لكن بحسب منظور صديقه **رشيد** الأمرُ مُختلفٌ تماما، والسببُ حالة الفقر وظُلمُ المسؤولين في وطن مسروق، ليكون مُلزمًا بضرورة اتّخاذ القرار المُناسب (ضرورة الهجرة عن قناعة)، لقوله مُخاطبا صديقة كريم: «**لا يُمكن أن تُحبّ وطنا هو في الأصل يكرهك بشكل أعمى، هل انتابك الإحساس الغريب بلا جدوى ما يحيط بك؟**»[10]، هذا **الملفوظ السردي** جاء متضمنا لعدّة حوافز، الغرضُ

منها تدعيم **الموضوع** تدريجيا عن طريق **فعل إقناعي**، يجعلُ صديقهُ **كريم** مُتقبّلا لفكرة الهجرة، رغم رفضه لها في البداية فقط، رغم انفصاله بذاته عن وطنه الجزائر منذ البداية (لجوءه إلى تعاطي الخمر هروبًا من الواقعِ المُرّ)، ليبقى **الموضوع ثابتا** من حيث **القيمة**، ويكون الوضع كالآتي:

- كريم ٨ الذات ٧ الجزائر .

انفصاله عن وطنه الجزائر (وهران)، واتصاله بذاته بلجوئه إلى السُكْرِ (الخمر) هروبا من واقعٍ مُستقبلهُ أصبح غامضا، يُنبئ عن كارثة مُدمّرة حارقة لكلّ شيء (ابن شهيد مُهمّش)، بخلقِ عالمٍ مثالي يرتاحُ فيه (عالم اللاوعي) رغم تنديد حبيبته مريم في قولها: **«تظُنُّ أنّ الشرابَ سيفكّها؟**

-أشربُ فقط لأنني يا مريم لا وهمَ لديّ، في قلبك جُرحك من أب تركَكِ تموتين في غابة موحشة، وفي قلبي جُرحٌ مماثلٌ لوالد ذهب وهو يظُنُّ أنه ترك زوجته في رعاية الذين ورثوا دمهُ، كلانا يا مريم يعيش خيبته السرية بصمت دائم، وكلانا يبحثُ عن أبٍ يحاول أن يتخيّل على الأقلّ شكله ووجههُ، ولكنه في كلّ مرة يُخفِقُ»[11]، لتأتي بعدها محاولة **رشيد** لإدخال صديقه **كريم** في **برنامجه السردي الاستعمالي**، كتمهيد لاتصاله بـ**الموضوع** (الهجرة إلى باريس)، بمنحه **مساندة قاعدية** أقرَّ بها في قوله مُقنِعا: «**مجرّدُ خطوة يا محاينك لا أكثر، لن تخسر إلاّ بؤسك، لقد تحصلت على الليسانس لتشتغل كمستخلف؟ ساعات يتيمة وجائعة وبلا منصب؟ أغمض فقط عينيك واترك نفسك تنساب كمياه الوديان، وسترى كيف ستفتح لك الحياة أبوابها»**[12]، ليقتنع كريم أخيراً على مضَضٍ في قولهِ مُعقِّبا: «**رشيد لم يرتح إلاّ عندما جرّني في طريق كان وحده يعرف مسالكها، أصبحت أُضمرُ حبا لمدينة كانت دائما تخيفني»**[13]، مُتّضحةً معه **ذات القيمة (كريم)** مُنسجمة مع **الموضوع المركزي (الهجرة)**، ليبدأ سهم **الرغبة** في الاتجاه نحو **التحقّقِ** بعد الاقتناع بضرورة السفر إلى باريس الحُلم والطموح، لتكون نتيجة الوضع كالآتي:

-كريم ٨ الذات ٨ فرنسا .

ليتجسّد القانون المُنظّمُ للسرد هنا في ثلاث مراحل هي:

-الفرضية: رغبة رشيد في إخراج كريم من وضعه المُتأزّم، بضرورة الهجرة.

-التحيين: استعمال المنطق الإقناعي لإنجاح موضوع القيمة (الرغبة).

-الغائية: النجاح في إقناع كريم -رغم تردُّده- بضرورة الهجرة.

استعمال **رشيد** للمنطق **الإقناعي** كأداة ضرورية، مكّنه من **تحيين رغبته** و**تحقيق موضوع القيمة** (الرغبة).

لنلاحظ بعدها حصول تدهور كبير لحال **رشيد** و**كريم** بعد هجرتهما واستقرارهما بباريس، نتيجة **قوى** هي عبارة عن **عوامل ضديدة** وقفتْ كحائلٍ أمامَ تحقيقِ رغباتهما (الطموحُ والحلمُ بمستقبلٍ أفضلٍ) كالعنصرية، لتكونَ نتيجةُ الفعلِ التحييني سلبيةً بالنسبة لهما، لفشلهما في الوقوف أمام هذه السلطةِ القهريةِ: (الرأسمالية، العنصرية، أحزاب اليمين المُتطرف الفرنسي) كقول كريم وخيبة الأمل تحيطُ به: «**ثلاث سنوات ولا شيء تغيّر، اللي يجي به النهار يأكله الليل، سبحان الله هذه المدينة رُكِّبت بشكل أنها تأخذ منك باليد اليسرى ما تسلمه لك باليد اليمنى ... جاء يسعى ضيّع تسعة»**[14]، وقولُ أحدِ العمال الفرنسيين العنصريين الرافضين للاحتجاج: **«كلّ ما تقومون به هو عمل لا معنى له، مشكلتنا ليست مع الرأسمال الفرنسي، ولكن مع الغرباء الذين يسرقون كل يوم قُوتنا وقُوتَ أولادنا، يجب أن يعودوا إلى الأرض التي جاءوا منها، هذا طلب بسيط وليس معقدا أبدا ...»**[15]، وقول رشيد واصفا حالة الانغلاق التي يعاني منها المهاجرون الأجانب بخاصة العرب: «**الأمر ليس بهذه السهولة، مورو الراسيست كان يقف دائما على رؤوسنا وينعتنا بكل الصفات**

السيئة:Sale arabe, Bougnioul, Ratton ماذا بقي من نعوته العنصرية؟»[16]، لتنقلب حياتهما من حالة التوازن (الحُلم والطموحُ) إلى حالة الاضطراب (الفشلُ والندمُ وخيبة الأمل)، وهذا ناتج طبيعي عن الإخفاق الكبير والصدام الذي وقعا فيه منذ البداية مع أرباب العمل، كوصف كريم لحظة بحثه عن عمل لموقف ساخر / مأساوي: **«باريس مدينة السحر والخوف كله، عندما دخلتها أوّل مرة مع رشيد كان جيبي مثقلا بعناوين المؤسسات وأرقام لا تحصى للتليفونات، لكن البوابات التي كانت ترفض استقبالنا كانت لا تعدّ أيضا، خصوصا إذا شمّت فينا رائحة الغُربة والغرباء، لم يكن الأمر في البداية كثير التعقيد ... خرجت من البيت وذهبت نحو الموعد في إحدى مؤسسات البناء، أُستقبلتُ باحترام وطيبة سألتني السيدة الإفريقية التي لم تكن تتقن اللغة الفرنسية العديد من الأسئلة، عما أنوي فعله وعن مهاراتي، أجبتها باستقامة ... عندما انتهت من مساءلتي، قادتني نحو باب وهي تربت على كتفي:**
-برافو، سيستقبلونك أحسن منا.
-لم أفهم سيدتي.
-أُعبُرُ هذا الباب، ستجدُ نفسك في بهو طويل، سر حتى النهاية، هناك ستجد من يحلّ مشكلتك، مباشرة.
-انتهت المسألة بموقف كوميدي ساخر حتى أحسست بقطع الزجاج تتكسّر في عيني، سرتُ مباشرة كما نصحتني المستخدمة الإفريقية ... بسرعة فجأة وجدتني في عمق شارع مكتظ بالناس والمارة والمتسوقين، عندما أردت أن أعود، لأنني أخطأت طريقي منذ البداية، كان كُلّ شيء مسدودا»[17]، ليؤدي هذا الموقف البدئي إلى تصعيد التأزم، بسبب التدهور التدريجي الحاصل بين الذوات الفاعلة (كريم / رشيد) والمحيط الجديد الذي انتقلوا إليه (باريس) مُمهدا لخلق لحظات صدامية، نتيجة التعارض في الرغبات والمساعي، كما في قول كريم: **«لم يكن الأمر صعبا عليّ لأفهم سرّ اللعبة، حلمي تبخّر يومها، إذ كنت أحلم أن أقيم سهرة جميلة لكل الرفاق الذين قبلوني وآووني في أقبيتهم أياما عديدة، وانطفأ حُلم مفاجأة مريم بالخبر السار: حنونتي ... مريومتي ... لقد وجدت عملا، سننسى الخيبة وعذابات السنين، ولم أفعل شيئا سوى أنّي كلما اشتقت إلى سماع صوتك، تمددت على ركبتيك وقلتُ لكِ غني لي»**[18]، ليحدث بعدها فعل التحويل، بالانتقال من حالة الاتصال إلى حالة الانفصال والعكس، وهذا التحويل لا يتمُّ عن طريق الصدفة، بحيث "يجبُ التعامل [معه] كعنصر مبرمجٍ بشكلٍ سابقٍ داخلَ خطاطة سردية"[19]، لتتواترَ بعده عديد المقاطع السردية، مُحدثةً وضعًا انفصاليًا تارة واتصاليا تارة أخرى، فالوضع الاتصالي حدث مباشرة بعد اتخاذ قرار الهجرة، كقول كريم: **«باريس دخلت قلبي، فزُحتُ أُجرّبُ حظي، تخيّلتها فينوس تمدّ ذراعيها لكل الغرباء، فصمّمت أن أكتشفها»**[20]، والوضع الانفصالي تحقّقَ بعد فشل مسعى الذات (رشيد / كريم) في امتلاك موضوع الرغبة (توفير حياة مريحة)، كخيبة أملِ كريم عندما قال: **«ولكنها ليست باريس التي صنعتها ذاكرتي وأشواقي»**[21]، لنجد معها أنّ التحويلات الممكنة التي قام بها كُلّ من رشيد وكريم، كفواعل جماعية سعت إلى إحداث التغيير، عن طريق تحيينها باستعمال الفعل الإقناعي، انتهت إلى الفشل (مُتغيّرة من الاضطراب إلى التوازن ثمّ إلى الاضطراب).
والترسيمة العاملية توضّح ذلك:

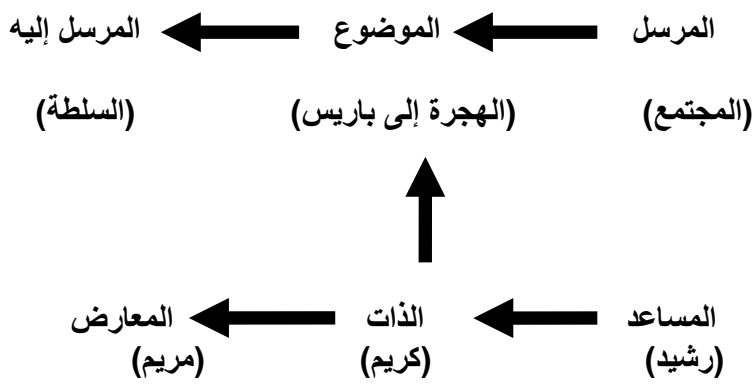

أ-ثنائية المرسل – المرسل إليه:

يعتبر الظُلم والحرمان واللاعدل المُمارسُ من قبل السلطة القهرية (الاستغلالية)، الدافعَ الأساسي الذي جعل رشيد يرغب في إقناع صديقه كريم بقرار الهجرة المُتّخذِ من قبلِه، ليتجسّدا كذات جماعية تُمثّلُ المجتمعَ (المُرسِل) وتسعى إلى التغيير، بممارسة الضغط على السلطة (المُرسَل إليه)، ممثلة في الحكومة الجزائرية اللاعادلة، لقول كريم ورشيد: **«ليس الجوع الذي يجنن ولكن الظلم»**[22]/ **«لا يمكن يا كريمو أن نبني وطنا بالكذب والجهل وسوء التسيير والنهب، لا أحد في مكانه، باسم الثورة قتلوا المخالفين لهم وباسمها استولوا على حليب البلاد وخبزها، وباسمها أيضا سيّروها بلا شهادات ولا ذكاء، إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ عشر سنوات؟ عشرون؟ نصف قرن؟ سنعود بشكل مفجع إلى النقطة الصفر، لأن كلّ ما بني على الغلط سيعود إلى لحظته الأولى، طال الزمن أم قصُر»**[23]، لتؤدي هذه الحالة وظيفة تحويلية بالنسبة لصديقه رشيد، الذي يحتلُّ بدوره خانة المساعدِ المُوجِّهِ للرغبَة.

-الجزائر: رمز الظلم والنهب وسوء التسيير.

-فرنسا: رمز العدل والمساواة وحسن التسيير.

لتقوم هذه الثنائية (**المرسل / المرسل إليه**) بتفعيل الثنائية العاملية (**الذات / الموضوع**) وتوجيهها.

ب- ثنائية الذات – الموضوع:

يعدُّ كريم هنا ممثلا أدى دورا عامليا على مستوى خانة الذات، لتحقيق موضوع الرغبة (الانفصال عن وطنه المسروق الجزائر، والاتصال بباريس الملجأ والمهجر)، وذلك باستعماله لإشارات دالة على أن باريس (فرنسا الحُلم والطموح) أحسن وأرحم من وهران (جزائر الظُلم واللاعدل)، كما في قوله: **«سنبحث عن مخرج وسنجده، ليفرحوا بهذه الأرض التي يؤكدون لنا كلّ صباح ومساء أنها ليست لنا»**[24] / **«أنا ورشيد كنّا على شفا حفرة من اليأس، كان مجنونا بهوس كان يعرف سرّهُ، حبّبني في باريس كمن يحببني في امرأة»**[25] / **«رشيد لم يرتح إلاّ عندما جرّني في طريق كان وحده يعرف مسالكها، أصبحت أضمر حبا لمدينة كانت دائما تُخيفني»**[26] / **«صحيح باريس ليست لنا ولكننا سنعرفُ كيف نُمارسُ معها غوايتنا، أنت تعرفُ أنها مدينة الغرباء»**[27] / **«باريس تُخبئ أحلامنا ... الجوع والزّلط والبرد لا يدخلون إلى هذه المدينة»**[28]، هذه العلامات حملت دلالات مباشرة ساهمت بشكل كبير في دعم رغبتهم بضرورة الهجرة نحو باريس، خاصة بعد اقتناع الذات كريم بهذا القرارِ، لتُصبح باريس كوُجهَةِ سفرٍ قيمية، مُحفّزا لذات القيمة على الانفصال المكاني قصد

التغيّر والتجدّد، بعد أن كانت مُعارضته الأولى للفكرة، لأسباب منها عدم مقدرته على مفارقة مريم (حُبُّه الخالدُ) لقوله: **«كانت باريس تنتابني من حين لآخر كعشق مبهم، لكن سرعان ما تعيدني مريم بحبها الأقوى وحنانها وعقلها إلى الأرض، فأنسى الحماقة التي كنت قد دخلتها»**[29]، لتأتي مُعارضته نسبية، كونه نفّذَ الأفعال الطلبية، خاصة بعد استعمال صديقه رشيد للفعل الإقناعي الهادف إلى تحقيق موضوع الرغبة لينصهر هذا الموضوع كُليا في الشَّكل التحييني الذي أرادته ذات الفاعل الجماعي (رشيد / كريم / مريم) بعد المُشاورة واتخاذ القرار، لتوضّح الترسيمة الآتية ذلك:

الذات **(كريم)** ⟵ الفرضية **(الانفصال عن الوطن الأم)** ⟵ التحيين

(استعمال الفعل الإقناعي) ⟵ الغائية **(النجاح في تحقيق الموضوع).**

ج- ثنائية المساعد – المعارض:

نجد الذات الرئيسية (كريم) قد تلقّتْ مساندة مباشرة من صديقه رشيد بإسهامه الكبير في تحقيق موضوع الرغبة (ضرورة اتخاذ قرار الهجرة)، وذلك بعد اقتراحه وإصراره وتأكيده على أنّه الحلّ الأخير والوحيد الذي سيخرجهم كمثقفين مهمّشين، من حالة الضياع والفراغ المُعاش في الوطن الأم الجزائر (الحرمان، البؤس، البطالة)، ليأتي دوره الغرضي في صورة مساعدة حقيقية للذات، بتفعيله لمسعى الانتقال والتغيير، كما في قوله مخاطبا صديقه كريم: **«يا رجل حبِّسْ الفستي، واش بك؟ احمد ربك أنّ باريس تمنحنا دفئها وحبّها بلا مقابل، واش كان يصير لو لم تكن موجودة؟ باريس يا صاحبي ذاكرة المعطوبين ومرفأ الفقراء، On vient tous de la Commune de paris، المُشكل أننا أخرجنا الفرنسيين اليوم وركضنا وراءهم في اليوم الموالي»**[30]، كما يُمكنُ ضمَّ: الحرمان، البؤس، الظلم، سلبيات النظام الحاكم في الجزائر إلى خانة المساعد، كقول رشيد: **«ماذا بقي في أرض سرقها انقلاب غبي يا صاحبي وعسكر في ذاكرتها الخوف، قبل أن تُجهزَ عليها العصابات التي تربت في حضنها؟»**[31]، باعتبارها من العناصر المُحرّكة التي سَرّعت قبول العامل الذات كريم بمقترحات العامل المساعد رشيد، انطلاقا من استعمال الفعل الإقناعي لإنجاح المهمة.

أما خانة المُعارضة ارتبطت بالعامل المضاد مريم (معارضة مؤقتة فقط) لعدم اقتناعها في البداية بقرار حبيبها كريم مغادرة أرض الوطن "وهران" يقول كريم موضّحا الموقف لحظة فاتحها في موضوع السفر: **«لم يكن الأمر سهلا مع مريم كما تخيّلهُ رشيد، عندما فاتحتها في الموضوع بكلّ تفاصيله نفرتني وكأنها لم تعرفنِ ولم تمنحنِ قلبها وأسرارها الطفولية، قضيت ليلتين وأنا أبحث عنها في الفراش، فلاَ أجدُ إلاّ جسدا ميتا، لا ينصاعُ لدفء أصابعي وقلبي، في اليوم الثالث نطقت وهي تحاول جاهدة أن توقف الدموع التي انهمرت من عينيها بقوة:**

-هل فكرت فيَّ أنا؟

-وفيمن يمكنني أنْ أُفكّرَ؟ كُلها أقلّ من سنة وأسحبكِ ورائي نحو سماءٍ أخرى أرحمَ من سماءِ مدينتنا»[32]، لتوافق في الأخير وتقبل قرار حبيبها، لعلمها المُسبقِ بحاله وأوضاعه غيرَ السَّارةِ، في قولِه: **«كانت مريم كلّ فرحي المُتبقي وحزني وخوفي، كانت موسيقاي وجنوني وأقاصي حماقاتي، كانت مريم نَفَسي المسروق وأشواقي الطفولية، كان بإمكانها إقناعي لو شاءت ولكنها لم تفعل، ربما كنت عدلت عن رأيي بلا تردد، لكن الخيبة كانت أكبر وباريس دخلت قلبي، فرُحتُ أُجرّبُ حظّي...»**[33]، لتتحول الذات المعارضة إلى ذات مساعدة.

ليكون انتقال الذات كريم وصديقه رشيد إلى باريس مرحلة انتقالية، أولا باتصالهما بالمهاجرين الأجانب في **نادي المغتربين (شاطني ملابري)** كوصفه للمكان قائلا: **«يتذكّر جيدا أنّه كان ليلتها [يقصد رشيد] كبطل مهزوم في هذا البهو الفارغ الذي يُشبه محشراً ضيقا، حيث لا يُسْمَعُ إلاّ شخير العمال القادم من الغُرف المُجاورة للمقسم، يواجه صورا بلا معنى منبعثة من تلفزيون قديم ومتآكلُ الأطراف، لا يصلحُ لشيء إلاّ لأن يكون في متحف»**[34]، وثانيا بنشوء علاقات صدامية مع أرباب العمل والعنصريين الفرنسيين، لتتأزّم الأوضاع وتتردى الأحوال، خاصة مع تزايد الأحقاد والاستفزازات المُتكرّرة من قِبَلِ فئة وقفت كعدو أمام المُهاجرين الأجانب خاصة الجزائريين مَسلُوبوا الحقوق، كقول رشيد: **«نعملُ وكأننا لا نعملُ، يوميا نطحن ولا حقوق، وإذا فتحت فمك وكنت وحيدا طارت أسنانك، لولا النقابة لأُعدتُ من حيث أتيت»**[35]، لتبدأ معه مرحلة الاضطراب بالنسبة للذات رشيد وسيكون تعاملنا مع برنامجه السردي المؤسَّسِ –الذي سندعمه بترسيمة عاملية لاحقا- مبنيا على تحديد الأدوار العاملية وانحرافها؛ إذ بعد نجاح موضوع الرغبة (الانتقال إلى باريس) ستبدأ حياته في التغيُّر جذريا، مع محاولته إنجاح برنامجه التغييري (الاحتجاج للظفر بالحقوق ورفض التفاوض)، رغم وجود معارضين له (مدير السكك الحديدية / السلطات الفرنسية / الشرطة) بفرضهم لبرنامج ضديد مُستخدمين فيه قوّة الفضِّ (إرادة القوة)، يُجسّدُه هذا المقطع السردي: **«كانت المظاهرة ضخمة، أغلقت على إثرها كلّ أبواب المدينة التي طوّقت من كل الجهات، وسُدّت المعابر الكبرى، كانت الصرخات تأتي من كلّ الجهات، الشرطة وسيارات الإسعاف والسيارات الكبيرة ذات الخراطيم الطويلة كلها كانت تسير في ركب المظاهرة أو تغلقُ عليها بعض الشوارع والممرات المؤدية إلى الأمكنة الرسمية»**[36]، وتأسيسا على هذا نجد سبب نُفوره من باريس واحتجاجه ضد ظروف العمل، اكتشافهُ للوجه الحقيقي لفرنسا في قوله: **«ولكنها ليست باريس التي صنعتها ذاكرتي وأشواقي»**[37]، لينجم عن هذا الصراع **سياقٌ تحويلي** مُؤسّسٌ على ثنائية **المجتمع / السلطة؛** إذ يبدأ **مشروع التغيير** مع **الذات** (رشيد) في شكل مُعلنٍ، ليؤسّس نفسه فاعلا ديناميا له إرادة خالصة في رفض الظلم والفساد.

انطلاقا مما سبق، نُقدّمُ صياغةً للوضعِ السردي كالآتي:

-فاعل الحالة ٨ موضوع الجهة.

-رشيد ٨ الرغبة في إحداث التغيير.

- ت. س [تحويل سردي] ◄[ف (رشيد) ٨ م . ج (الرغبة في إحداث التغيير)]◄ [ف ٨ م . ج].

ليتحول فاعل الحالة (رشيد) من حالة الاتصال مع موضوع الجهة إلى حالة الانفصال بعد فضّ الحركة الاحتجاجية:

-فاعل الحالة ٧ موضوع الجهة.

-رشيد ٧ الرغبة في إحداث التغيير.

- ت. س [تحويل سردي] ◄[ف (رشيد)٧ م . ج (الرغبة في إحداث التغيير)] ◄ [ف ٧ م . ج].

الوضع الأول تميز بالاتصال:

-الفرضية ← التحيين ← الغائية

(محاولة التغيير بإرساء قيمِ الحقِّ) / (الاعتماد على الأهلية في التنفيذ) / (النجاح)

بعد فشل الذات رشيد في تحقيق رغبته حدثت عملية تحويل، بانتقال ميزان القوة للسلطة (مسؤول السكك الحديدية المباشر)، لتتشابك معه الأدوار العاملية، ويفشل الإنجاز بالنسبة للذوات التي مثّلت فئة المجتمع، لعدم امتلاكها الأدوات اللازمة لتحقيق المشروع.

الوضع الثاني تميّز بالانفصال:

-الفرضية ← التحيين ← الغائية

(محاولة التغيير بإرساء قيمِ الحقِّ) (الاعتماد على الأهلية في التنفيذ) (الفشل)

و الترسيمة العاملية توضّح ذلك:

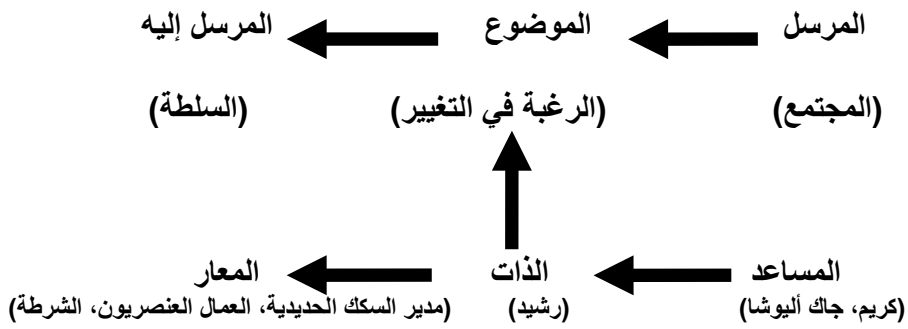

تُبرزُ هذه الترسيمة كيفية انتظام الفواعل من خلال تموقُعها، لتحدث بعض الانزلاقات العاملية، بتحوّل الذات من حال إلى حال (اتصال ثم انفصال) في مشروعها التغييري.

أ-ثنائية المرسل – المرسل إليه:

ما يَشُدُّ الانتباهَ في هذه الترسيمة ثنائيةُ المرسِل / المرسَل إليه؛ إذ جاءت باريس بإيجابياتها وسلبياتها مُحرّكاً وحافزاً، وجَّهَ الذات رشيد نحو ضرورة التغيير نحو الأفضل (القيام بتنظيم إضراب احتجاجي كوسيلة ضغط يفتكُّ من خلالها حقوق عمّال السكك الحديدية من السلطة)، بعد امتلاكه للخبرة النقابية (الأهلية = إرادة المعرفة)، لتحويل علاقة الانفصال بينه وبين مسؤولي قطاع عمله إلى علاقة الاتصال بالضغط عليهم لإرجاع الحقوق، وهذا يتطلّبُ امتلاك عنصرين أساسيين هما: الرغبة في الفعل / وجوب الفعل، توافرا عند الذات رشيد.

المجتمع كمرسل تمثل في: البؤس / الفقر / الحرمان / الاستغلال (فئة عمال السكك الحديدية)، هذه العوامل القاهرة دفعت الذات ومساعديه إلى ضرورة القيام بحركة احتجاجية لإحداث التغيير نحو الأفضل، بالتخلّص من مسببات التهميش والحرمان في محيط العمل القاسي، ليكون التحريك مُحقّقا من قبلِ المساعدين (العمال المُنضَوُون تحت لواء نقابة العمال C G T).

وخانة المرسل إليه ارتبطت بمتلقٍ هام هو السلطة القهرية، بحكم أن التحريك والمواجهة التي قادها عمّالُ السكك الحديدية تجاه سياسة مدير القطاع الاستغلالية والتهميشية المؤثرة سِلبا على القطاع، وبسبب هذه السياسة الإقطاعية شنَّ أغلبُ العمال لإضراب شامل كحركة مُضادة، تميّزت بداية بالاضطراب لتنتهي بالفشل، من هنا دخلت السلطة كطرفٍ في الصراع لتُصبح ذات صبغة قيمية، لارتباط عملية المواجهة

ضد مدير السكك الحديدية بهدفٍ، هو توجيه رسالة شديدة اللهجة للسلطة القهرية بضرورة تلبية المطالب أو المواجهة.

ب- ثنائية الذات – الموضوع:

يوجدُ في خانةِ الذات ممثلٌ واحدٌ يؤدي هذا الدور، وباقي الذوات المُشتركة معه في تحقيق موضوع الرغبة تدخل ضمن خانة المساعدين، فذات رشيد منذ بداية ظهورها وهي مهيمنة على مسار الحدث كفاعل رئيسي، سخّرَ نفسهُ لخدمة القيم العادلة ومبادئ الحق والمساواة، رغم تكالب عديد الفواعل ضده لردعه وإعاقته، كما في قول صديقه كريم مُحذِّرا: **«أعرف أنّ قلبك حار، ولكن يجب عليك أن تحذرَ، فرنسا نفسها تعيش وضعا خاصا وقد تكاثرت العنصرية وتنامى اليمين المتطرف في ظروف الأزمة كما هي عادته»**[38]، فموضوع الذات هنا تضمّن عدّة موضوعات جزئية، شكّلت مجتمعة الموضوع المركزي (الرغبة في التغيير).

كما نلاحظ خانة الموضوع قد ارتبطت بالرغبة في التغيير، انطلاقا من كشف زيف السلطة القهرية واستغلال أرباب العمل، المُساهم في خلق الصراع بين فئتي: المجتمع / السلطة.

ج- ثنائية المساعد – المعارض:

تبنَّى في خانةِ المعارضِ مدير السكك الحديد برنامجًا سرديا ضديدا يهدف إلى كسر الاحتجاج ومعاقبة المُتسببين فيه، باستعمال إرادة القوة (شرطة مكافحة الشغب وعدم الإنصات للمطالب المشروعة)، ليُسهم هذا الوضع الصدامي مع الذات في خلقِ شرخٍ في عملية التواصل، التي تحوّلت إلى انفصال، مُلحقا أضرارا جسيمة برشيد، نهايتها موتُه.

خانة المساعد تدعّمت بمواقف عمال السكك الحديد المُنظَّمِّينَ والمؤيدين للإضراب (جاك الشومينو / أليوشا)، لإنجاح البرنامج السردي التغييري المُتبنى من قبلهم كفواعل جماعية مُنفّذة أعلنتِ المُواجهة، ليندمج ضمن برنامجهم جُلُّ العمال المنضوون تحت لواء نقابة العمال C G T، وللأسف الشديد يفشل الإنجاز الذي بُني البرنامج السردي الرئيسي عليه، ويكون جزاء الذات (رشيد) الموت / الاغتيال.

الخاتمة:

لنصل في ختامِ دراستنا إلى خلاصة مفادُها أنّ السارد في روايةِ **"جسدُ الحرائقِ"** قدّم شخصيّاته، وحرّكها بطريقة لا يبرزون فيها كأشياء، بل كواقعٍ مُتحرّكٍ قد يذوبُ البطلُ الفردي فيها، لكنَّ هذا الذوبانَ، ذوبانٌ اجتماعي في روحِ الجماعةِ، التي مثّلها كريم ورشيد ومريم كنماذج من مجتمعٍ مسروقٍ، بمساهمتهم في صُنع الدلالة إسهاما فعالا، لتقوم بحركة نَجم عنها احتكاكاتٌ عديدة، قدّمت لنا نموذجا بالِغَ القسوة، مُمثلاً في حالِ المثقفين المُهمّشين **(كريم / مريم)**، وحالِ العمالِ المُضطهدين **(رشيد)** في بلدٍ مليء بالخيراتِ والكفاءاتِ، لتُصوّرَ من خلال هذا الوضع التشوهات المادية والروحية لإنسان ما بعد الاستقلال، على الصعيد الفردي **(الحاج المكّي)**، وعلى الصعيد العام **(السلطة القهرية الظالمة ممثلة في النظام الحاكم)**، لتتشكّل البنيةُ الدلاليةُ للخطابِ السردي من نسيج الرؤى التي تصدرُ عن الشخصياتِ بوصفها فواعلَ في بنيةِ الخطابِ، ولتضطلعَ آليةُ السردِ بالدورِ الرئيسي في رصدِ تفاصيلِ الأحداثِ التي شكّلت السياسةُ والإيديولوجيا في المجتمع إيقاعها من اضطرابٍ وتمردٍ وعودة للتوازن، مستخدمة كل الطاقات الفنية المُتاحة لتقوية البُعد الدرامي، وتعميق الوعي بالذات والواقع المعيش، وكذا تأكيد الهوية من خلال الانكسارات الاجتماعية والثقافية والسياسية، لواقع الشخصية الروائية، المرتبطة في برنامجها السردي بعلاقات الطموح والمغامرة الساعية إلى تحقيقها، رغم لحظات الخيبة والفشل.

الهوامش:

1) محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردي (نظرية غريماس)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993، ص 35.
2) السعيد بوطاجين: الاشتغال العاملي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2000، ص 19 .
3) أحسن مزدور: مقاربة سيميائية في قراءة الشعر والرواية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2005، ص 10 .
4) تزفيتان تودوروف: ميخائيل باختين (المبدأ الحواري)، تر: فخري صلاح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ط2، ص 127 .
5) محمد مفتاح: التشابه والاختلاف (نحو منهاجية شمولية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 1996، ص 35 .
6) واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، لبنان، 2010، ط1، ص ص 54 – 55 .
7) المصدر نفسه، ص ص 54 – 55 .
8) المصدر نفسه، ص ص 34 – 35 .
9) المصدر نفسه، ص 71 .
10) المصدر نفسه، ص 68 .
11) المصدر نفسه، ص 55 .
12) المصدر نفسه، ص 35 .
13) المصدر نفسه، ص 35 .
14) المصدر نفسه، ص 101 .
15) المصدر نفسه، ص 121 .
16) المصدر نفسه، ص 176 .
17) المصدر نفسه، ص ص 76 – 77 .
18) المصدر نفسه، ص 77.
19) سعيد بنكراد: مدخل إلى السميائيات السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص55 .
20) واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 72 .
21) المصدر نفسه، ص 133.
22) المصدر نفسه، ص 70.
23) المصدر نفسه، ص 60 .
24) المصدر نفسه، ص 55 .
25) المصدر نفسه، ص 34 .
26) المصدر نفسه، ص 35 .
27) المصدر نفسه، ص 35 .
28) المصدر نفسه، ص 35 .
29) المصدر نفسه، ص 31 .
30) المصدر نفسه، ص 29 .
31) المصدر نفسه، ص 28 .
32) المصدر نفسه، ص ص 70 – 71 .
33) المصدر نفسه، ص 72 .

34) المصدر نفسه، ص 132 .
35) المصدر نفسه، ص 134 .
36) المصدر نفسه، ص ص 122 - 123 .
37) المصدر نفسه، ص 133 .
38) المصدر نفسه، ص ص 116 - 117 .

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحسن مزدور: مقاربة سيميائية في قراءة الشعر والرواية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2005.
2. تزفيتان تودوروف: ميخائيل باختين (المبدأ الحواري)، تر: فخري صلاح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ط2.
3. السعيد بوطاجين: الاشتغال العاملي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2000.
4. محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردي (نظرية غريماس)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.
5. محمد مفتاح: التشابه والاختلاف (نحو منهاجية شمولية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 1996.
6. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، لبنان، 2010، ط1.
7. سعيد بنكراد: مدخل إلى السميائيات السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003.